

دراسة أنثروبولوجية للثقافة والعادات والتقاليد المرتبطة بالحمامات المعدنية
حالة مدينة بوحنيفية

An anthropological study of the culture, customs and traditions associated
with mineral baths The case of the city of Bouhanifia

ط/د. المقروض زين العابدين^{1*}

أ.د بومحراث بلخير

¹ جامعة وهران 2، elmagroud.zineelabidine@univ-oran2.dz

البريد الإلكتروني: zinoumagroud@gmail.com

مخبر الإنتماء: الأنساق، البنيات، النماذج والممارسات

تاريخ النشر: 2021/12./12

تاريخ القبول: 2021/12./02

تاريخ الاستلام: 2021/04/28

ملخص:

تهدف دراستنا إلى الوقوف على الحمامات المعدنية التي تتوفر عليها مدينة بوحنيفية، وما تلعبه مياه الينابيع الحموية الجارية داخل هاته المدينة في تشييد فضاءات حضرية عبر الأزمنة، والتي كان لها الدور الفعال في خلق ديناميكية أنثروبولوجية حضرية بأبعادها الاجتماعية والثقافية والإقتصادية والرمزية والطقوسية.

توصلت الدراسة إلى أن المتغير الإيكولوجي ممثلا في مياه الينابيع لمدينة بوحنيفية، ساهم بشكل أساسي في تشكيل بناء اجتماعي وظيفي يمثل هوية مجتمع يرتاد الحمامات المعدنية، بديمومة يجعلها تحافظ على موروثه الثقافي الشعبي مجسدا في الممارسات والطقوس والرمزيات الأنثروبولوجية، وتجعل من الإنسان المتشبع بثقافة الإستحمام قد أبدع في بناء جماليات لعمران الحمامات المعدنية والذي يعد أيقونة من أيقونات الفضاء حضري للمدينة، لنخلص إلى أن البعد الإيكولوجي قد ساهم في تثبيت ثقافة مجتمع في ذاكرته الشعبية، بشقيه المادي واللامادي.

كلمات مفتاحية: الحمام، الماء المعدني، بوحنيفية، الحضرية، المدينة.

* المؤلف المرسل: المقروض زين العابدين،

Abstract:

Our study aims to examine the mineral baths that the city of Bouhanifia has, and what the warm springs running inside this city play in the construction of urban spaces over time, which had an effective role in creating an anthropological dynamism with its social, cultural, economic, symbolic and ritual dimensions.

The study found that the ecological variable, represented by the spring water of the city of Bouhanifa, contributed mainly to the formation of a functional social structure that represents the identity of a community that frequents mineral baths, with a durability that makes it preserves its popular cultural heritage embodied in the practices, rituals and anthropological symbolism, and makes the person imbued with a bathing culture. He excelled in building aesthetics for the urban bathhouse, which is an icon of the urban space of the city, to conclude that the ecological dimension has contributed to the stabilization of a society's culture in its popular memory, in both its material and immaterial parts.

Keywords: : Bath; Mineral water; Bouhanifa; Urban; City.

مقدمة:

تعددت البحوث والدراسات السوسيوولوجية والأنثروبولوجية التي تناولت الحمامات كموضوع يندرج ضمن كل ما هو متعلق بالرمز، الطقوس والحضرية والمدينة، وكذا التفاعلات الإجتماعية والأنس بين مرتاديهما، إلا أن جلها اهتم بالحمامات الشعبية التي يتم فيها تحضير مادة "الماء" من تسخين وتخصيص ركن من هذا الفضاء المعماري الحضري للقيام بهاته العملية، ولم تتناول بالدراسة والتحليل بشكل كاف الحمامات المعدنية المرتبطة أساسا بالمياه الحموية الطبيعية النابعة من باطن الأرض وما يتشكل عنها من تمثلات وتمظهرات وأساطير، ترسخت في الذاكرة الشعبية لمستعملي هذا النوع من الإستحمام.

هدفنا من هذه الدراسة وخاصة من الناحية الإيبستيمية، هو شغفنا المعرفي إلى التطرق لهذا الموضوع كونه يستشكل تفاصيل فضاء الحمام داخل المدينة وعلاقته بالحضرية

والتحضر لإنتاج كل ما له علاقة بالبعد الأنثروبولوجي للإستحمام، ومن هذا المنطلق نحاول في بحثنا أن نجيب على السؤال الإشكالي التالي:

كيف ساهمت المياه المعدنية في تشكيل فضاء حضري مدني لمنطقة بوحنيقية؟

سؤالنا هذا يحيلنا إلى افتراض فرضيات مفادها أنه دائما ما كانت الينابيع المتفجرة من الأرض مكانا خصبا لإقامة حضارة المجتمعات الإنسانية عبر العصور إلى يومنا هذا، ذلك أن المياه هي أصل الحياة، ورمز للخصوبة والوفرة والأمان والخير، ولما كان لها المادّة المقدسة من مكانة رمزية، فإن استخداماته والحاجة إليه قد شهد تطورا هو الآخر ليخلق لنا ما يسمى بالحمامات المعدنية التي استعملها الإنسان كمظهر من مظاهر تحسن نمط عيشه، واتسم بطابع التحضر، ومحاولين معرفة تأثير الجانب الإيكولوجي على ثقافات الشعوب عبر الأزمنة، مستعينين في ذلك بالمنهج الأنثروبولوجي المبني على الوصف الإثنوغرافي بمقاربة سوسيولوجية للحضرية والذي نعتقد بأنه سيفيدنا، وسنحاول من خلاله تشخيص استفهامات بحثنا.

1. مفاهيم البحث:

1.1 الحمام Bath – Hammam:

فقد عرف ابن منظور مفهوم الحمام Hammam كالاتي: "الحمام هو موضع الإستحمام، والحميمة هو الماء الحار، وأحم نفسه إذا غسلها بالماء الحار، ويقال استحتم الرجل إذا اغتسل بالماء الحار ثم صار الإغتسال استحماما بأي ماء كان، وعرف الحمام بالديماس بفتح وتشديد الدال وأيضا بالبلان" (ابن منظور، 2010، ص233)، "والحمام في مفهوم العامة هو مكان للإغتسال بالماء داخل قاعات مخصصة لذلك، وهي متدرجة في الحرارة بين البرودة والسخونة بما يشبه اختلاف الفصول الأربعة تقريبا، ويعتبر الحمام من المرافق العمومية الأساسية وقد حظى باهتمام فائق في كل الحضارات الإغريقية والرومانية والإسلامية، ويوجد نوعان من الحمامات: الحمامات المبنية التي يشيدها البشر والحمامات الطبيعية الحارة" (خولة الفرشيشي، 2017، ص25).

2.1 الماء المعدني Mineral water:

"أما مفهوم الماء المعدني فهو عبارة عن سوائل مختلفة التراكيب الطبيعية، والحرارة نابعة من ينابيع طبيعية منتشرة على سطح الكرة، وهي الآن من أهم الوسائط العلاجية في معالجة الأمراض المزمنة ويقصد باستعمالها أمران، أولهما إدخال كمية متفاوتة من جواهر دوائية في البنية، وثانيهما إحداث تنوع مخصوص في بعض الأعضاء إما بكيفية لاواسطية أو واسطية، فالغرض الأول يتم باستعمال مياه الينابيع الطبيعية من الباطن، والغرض الثاني يتم باستعمالها إما على صفة الإستحمام أو التشلشل، وإما استعمالها على هيئة الغازات والأبخرة فإنه يقصد به إتمام الغرضين السابقين في آن واحد" (محمد بن حسين بيرم التونسي، 1908، ص38-39).

"وفي المجمل فإن الحمامات الطبيعية هي حمامات معدنية تقام عادة حول منابع مياه معدنية ساخنة غرضها التداوي، يقصدها الناس للمعالجة من أمراض وأسقام" (خولة الفرشيشي، 2017، ص26).

3.1 مدينة بوحنيفية Bouhanifia:

"هي إحدى المدن الجزائرية، تقع في الغرب الجزائري، وهي مدينة عتيقة وعريقة، تزخر بتراث مادي ولا مادي خاصة في مجال السياحة، صنعتها مجموعة من العوامل البيئية والتاريخية، كما عرفت عدة محطات تاريخية منذ الرومان والأتراك والفرنسيين، إلى غاية يومنا هذا" (Sahla.N, 2018, p98).

الشكل 1: خريطة تحدد موقع مدينة بوحنيفية من ولاية معسكر.



المصدر: دائرة بوحنيفية ولاية معسكر، (بوحنيفية/ ar.wikipedia.org/wiki/بوحنيفية)

4.1 الحضرة Urban :

يرى عبد الرحمن ابن خلدون الحضريّة على أنّها ديناميكية أنثروبولوجية اجتماعية تنتقل من خشونة البداوة إلى مرونة الحضارة، وهذا من حيث تباين مظاهر العيش وأحوال الناس والتي ينسبها إلى تفنن الصنائع والمهن حيث يقول في هذا الشأن "إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استجداته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضها" (عبد الرحمن ابن خلدون، 2005، ص72).

كما وضع عبد الرحمن ابن خلدون مقارنة بين أهل الحضرة والبدو من خلال وصفه لهم حيث يقول: "ألا ترى إلى أهل الحضرة مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس حتى أن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك، وما ذاك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضريّة مالا يعرفه البدوي" (عبد الرحمن ابن خلدون، 2005، ص189).

"كما تعتبر الحضريّة على أنّها مفهوم يشير إلى طريقة الحياة المميزة لأهل المدن، الذين يتبعون عادة أسلوباً أو نمطاً معيناً في حياتهم وهو أمر يتعلق بالسلوك اليومي، فالناس يتكيفون نفسياً مع متطلبات المدينة وأحد مظاهر هذا التكيف هو الذي جعل سلوكهم مطابقاً لسلوك رفقائهم من الحضريين" (عبد الرؤوف الصبغ، 2003، ص65).

في حين أن ويرث لويس Wirth والذي كان له الفضل الكبير في محاولته تقديم مفهوم للحضريّة من خلال أعماله حيث اعتبر "أن إيكولوجية المدينة بما تفرضه من تفاعلات وعلاقات تنتج عنها سلوكيات وذهنيات تطبع حياة الفرد الحضري وتكسبه ثقافة خاصة تنعكس على سلوكه يمكن أن نطلق عليها الثقافة الحضريّة يكتسبها الفرد من خلال الإقامة في المدينة ويتلون سلوكه بلونها" (محمد بومخلوف، 2001، ص23).

5.1 المدينة City :

"ظل تحديد مفهوم المدينة في تطور وتحول إلى أن صيغت لها تعريفات معاصرة لا تقتصر على النظر للمدينة كبناء مادي عمراني، أو مجال حضري، وإنما صار ينظر للمدينة على أنّها وحدة تتداخل فيها أبعاد أساسية ثلاثة، ويستمد كل مكون من هذه المكونات الثلاثة دلالاته التفسيرية في اتحاده وارتباطه مع المكونين الآخرين: البعد المكاني، البعد الإيكولوجي، البعد

السوسيولوجي، وهذا الذي يصبو النظرة الكلاسيكية اتجاه المدينة التي ترى هذه الأخيرة على أنها بناء مادي ومعماري فقط، بل المدينة تمثل إطارا بشريا وماديا وعمرانيا وإطارا تنظيميا واجتماعيا، ويتشكل من خلال التساند بين هذه الأطر نسيج حضري يساهم ويؤثر في تشكل نوعية الحياة بالمدينة" (أحمد النكلاوي، 2002، ص126).

ويرى روبرت بارك Robert Park أن "المدينة ظاهرة طبيعية، تنشأ نتيجة لتوافر عوامل طبيعية لا يمكن التحكم فيها، وأن لكل مدينة من المدن تنظيما الخاص الذي تنقسم بمقتضاه إلى مناطق مختلفة، لكل منها نشاط خاص سواء أكان هذا النشاط صناعيا أو تجاريا، أو سكنيا، بل أن لكل منطقة خصائصها الإجتماعية والثقافية التي تطبع حياة أهلها بطابع خاص" (السيد عبد العاطي، 2006، ص399).

أما عند الأنثروبولوجي هنري لوفيفر Henri Lefebvre فله رأي آخر حول المدينة، حيث يصرح في مؤلفه: "من الأفضل استعمال مفهوم المجتمع الحضري والظاهرة الحضرية على مفهوم المدينة لأنه شامل وأوسع من حيث الدلالة على الواقع (Henri Lefebvre, 1970, p66).

2. مونوغرافية منطقة الدراسة ومدينتها:

1.2 التعريف بمنطقة بوحنيفية:

"حمام بوحنيفية مركز إداري لبلدية تحمل اسمها، تغطي مساحة 238 كم² يحدها من الشمال بلدية تيزي وبلدية حاسين ومن الجنوب ولاية سيدي بلعباس وغربا دائرة سيق وولاية سيدي بلعباس وشرقا بلدية عين فكان، كما تبعد عن مدينة وهران بـ100 كم و20 كم عن مركز ولايتها معسكر وعن العاصمة بـ365 كم، تعتبر المدينة من بين أكبر وأهم المحطات المعدنية في الجزائر حيث أنها تستقبل أكثر من 144000 سائح سنويا، هذه المدينة منذ سنة 1988 أصبحت مقر دائرة تضم عدة بلديات كبلدية حاسين وبلدية القيطنة، ويقطعها طريق ولائي رقم 06 الرابط بين ولاية معسكر وسيدي بلعباس، كما تبعد هذه المدينة عن البحر الأبيض المتوسط بـ60 كم" (عزيز لونيس، 2018، ص10).

2.2 تاريخ حمامات بوحنيفية:

"إن تاريخ مدينة بوحنيفية ليس حديثا بل معروف باكتشاف واستعمال مياهها المعدنية المكتشفة من طرف الرومان، لقد وصل الرومان إلى مدينة بوحنيفية والدليل هو تلك الآثار المتبقية حاليا وهذا في المنطقة الجنوبية من المدينة، المياه المعدنية كان يعتز بها الرومان مما أدى بهم إلى بناء مدينة عسكرية التي كانت تسمى أكواسيرنسس *Aquae Sirenses*. بالقرب من المنابع المعدنية الساخنة، الآثار المتبقية درست من طرف الجيولوجية السيدة M.vincent التي غطت مساحة كبيرة من الهكتارات والتي قالت أن هذه المدينة دمرت عدة مرات وأعيد بناؤها وبقيت مزدهرة إلى غاية القرن السابع عشر، ونجد بين الآثار المتبقية وجود مطحنة زيتية وبقايا حمامات رومانية قديمة العمران، وقد أفاد بعض الأساتذة بالمدينة أن أحد الفلاحين اكتشف مؤخرا بقايا مدينة رومانية عندما كان يقوم بالحفر، وعلى هذا الاكتشاف وبعد عمليات البحث عثر على مجموعة من الأحجار الكبيرة والقلل والغرف التي كانت تستعمل كحجرات لجمع المواد الدسمة، ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة بوحنيفية يعود تاريخها إلى أقدم العصور بها العديد من المناطق الأثرية" (Vincent.M, 1926, p21).

"أما في القرن الرابع عشر المدينة أصبحت تسمى نسبة للفتاح "أبوحنيفية" وتوجد قبة له في الجهة اليمنى من واد المنطقة، أبوحنيفية المولود سنة 1279 ببغداد والذي توفي عن عمر يناهز السبعين سنة بالمدينة" (Vincent.M, 1926, p26).

"أما في الفترة الاستعمارية، ففي بداية القرن العشرين كانت المدينة معروفة بمنابعها المعدنية تم بناء فيها أول جسر وهذا لربط المدينة بباقي المناطق الأخرى، زيادة على هذا تم بناء بيوت من نوع البناء الجاهز من أجل استقبال المسافرين، وبعد مرور مدة من الزمن تم بناء أول فندق وهو فندق "عبادية" سنة 1905 وفندق المسافرين سنة 1912 وفندق فيثي سنة 1916 الذي يرجع اسمه إلى صاحب الفندق وهو من أصل يهودي -أصبح يدعى الآن فندق الصدق- وتحت الضغط المتواصل للمرضى، قامت الحكومة الفرنسية ببناء مرافق استقبال كالمستشفى والحمام -الذي يسمى حاليا فندق الحمامات التابع للقطاع العام- ونشوء الطرق التي تمثل بنية المدينة. وفي سنة 1939 تم بناء المحطة المعدنية الخاصة بالمرضى، كما استفادت المدينة ببناء سد الذي يبعد بـ 4 كم ويحتوي على احتياط 80 مليون

م³ من الماء، هذه المنشآت سمحت بخلق مناصب عمل مما أدى إلى ظهور سكان جدد وهذا راجع إلى ظهور أحياء جديدة يسكنها عرب، حي "القلال" الموجود في الجهة اليمنى للواد وحي "سيدي الصحي" في الجهة اليسرى للواد، أما وسط المدينة فأغلبه مستغل من طرف الفرنسيين، وفي الخمسينيات تم استغلال محجر الرخام المتواجد في الجهة الشرقية للمدينة" (Mascret Claude, 1953, p44).

3. مدرسة شيكاغو والأنثروبولوجيا الحضرية:

"ظهرت الأنثروبولوجيا الحضرية لتهم بمفهوم الثقافات التي يتداولها سكان المدن وكذلك فهم تركيباتهم المختلفة وهوياتهم داخل ذلك النسيج الحضري وبذلك تكون قد منحت نظرة مضاعفة للظواهر الاجتماعية الموجودة بالمدينة التي تمثل الرقي والتحضر، وهنا كان على الأنثروبولوجيين التركيز على ثقافات الأفراد من حيث مواقع استقرارهم، فالمدينة تشكل وحدة ثقافية اجتماعية كونها فضاء له نمط حياة خاص تتماثل فيه سلوكيات الأفراد وهوياتهم المختلفة لتشكل بدورها هوية خاصة للمدينة المتواجدين بها من خلال عاداتهم وتقاليدهم" (Henri Lefebvre, 1970, p85)، وهذا ما نجده عند ساكنة مدينة بوحنيفة حيث تتمظهر فيها ثقافات الأخر مجسدة في سلوكياتهم ولهجاتهم، إذ يتقنون فيها لهجة العاصمي والوهراني والتلمساني وغيرها إلى لغات مختلفة بفضل الأجانب الوافدين من مختلف أنحاء العالم، ونرى ذلك أيضا من حيث امتنانهم مهنا لم تكن موجودة من قبل كصناعة الفخار وخياطة الألبسة التقليدية المتنوعة، واشتغالهم حرفة السياحة من استقبال ومطاعم وكل ما تعلق بالفندقة، لدرجة أنهم قد أخذوا عادات وتقاليد جديدة لمنطقة القبائل مثلا من طقوس استحمام وطبخ ولباس واحتفالات بمناسبة معينة، وصولا إلى الزواج والمصاهرة من مناطق مختلفة ومن ولايات عدة للوطن.

"ومن خلال بارك Park والمنظور الإيكولوجي للمدينة (المناطق الطبيعية)، ومن خلال استلهم "الفرضية المنطقية" (L'hypothèse zonale) التي تقول بإمكانية "القراءة الطبغرافية" للظواهر الاجتماعية والتي وضعها صديقه أرنست بيرجيس (E. Burgess) في مقالة شهيرة عن "نمو المدينة"، سيعمد روبرت بارك بدوره إلى اعتماد ذات المقاربة من خلال القول بأن المدينة في بعدها الإيكولوجي تنقسم إلى عدة مناطق متجاورة، وفي هذه المناطق

تعيش "المجموعة الحضرية"، التي يعتبرها بارك مجموعة مجالية، وجغرافية وروحية-ثقافية" (عبد الرحمن المالكي، 2016، ص127)، وهنا يتبين لنا كيف أن مدينة بوحنيفية قد قسمت بهذه المقاربة إلى مناطق متجاورة ومتباينة في نفس الوقت من حيث الحضرية، إذ أن هناك مناطق عزل ساكنتها أنفسهم عن الحراك الإنساني والإجتماعي الذي تشهده مناطق أخرى وذلك راجع إلى مرجعياتهم وقناعاتهم المتعددة والتي ترى أن الإندماج فيه أمر محظور.

فاستنادا إلى هذا الطرح، وما تقدم أنفا عن تاريخ مدينة بوحنيفية ومن خلال السلوك البشري للحياة اليومية بها، سكانا محليين كانوا أم زائرين، من مختلف فئات المجتمع ومن مختلف الفئات العمرية، دعانا الفضول إلى الملاحظة قصد الإستقراء والإستنباط عما يدور من ممارسات وتمظهرات، يبيدها كل من هؤلاء وخاصة أولئك الذين يقصدون فضاءات الحمامات المعدنية الموجودة في المدينة، أو أولئك الذين يفضلون الإستحمام في المنابع الحموية التي تجري على مستوى وادي الحمام جاعلين من الفضاء العمومي للمدينة فضاء أوسع حيث لا تحده أسوار أو مداخل ولا قوانين داخلية ولا غرف مخصصة لذلك وبالمجان دون دفع دينار واحد، يحملون في ذاكرتهم الشعبية مجموعة من التمثلات حول قيامهم بفعل الإستحمام ممارسين مجموعة من الطقوس والتمظهرات كطقس للعبور كل حسب القصد الذي جاء لأجله، مما استدعى هذا المشهد ضرورة البحث الإمبريقي لهاته الظاهرة، حيث تقمصنا دور المرتاد المستحم الطالب لقصد ما، وفي نفس الوقت إحكام الصرامة الإيستيمية للمغامرة العلمية، بين ذاتية الباحث وموضوعيته في البحث، ومن خلال كل هذا افترضنا بأن هذا التفاعل الإجتماعي والتلاقح الثقافي الأنثروبولوجي بين مرتادي مدينة بوحنيفية القادمين من شتى أنحاء العالم، والذي قدمته الإيكولوجيا الطبيعية، شكل تراكميا منذ القدم إلى يومنا هذا فضاء حضريا بكل أبعاده المختلفة.

4. إثنوغرافيا حمام بوحنيفية:

1.4 الأسطورة والرمز والممارسة:

1.1.4 أسطورة ضريح الولي الصالح سيدي بوحنيفية:

من خلال مقابلتنا مع مقدم ضريح الولي الصالح سيدي بوحنيفية حول تاريخه والقصة الأسطورية التي تتداول بخصوصه وما يتعلق بأصل تسميته وكيف وصل إلى المنطقة والمعركة

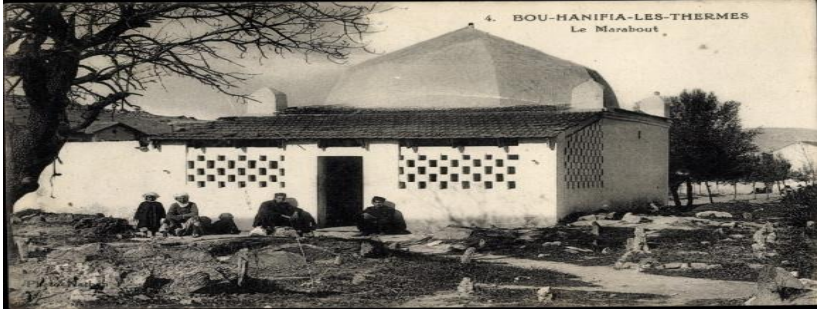
التي خاضها، صرح لنا بما يلي: "أصل التسمية هي سيدي بن حنيفة المولود ببغداد سنة 1279م ومع مرور الزمن تحولت التسمية إلى بوحنيفية، تعود نشأة حمامات بوحنيفية إلى زمن -الفتوحات الإسلامية-، كان الجيش العربي الذي كانت مهمته نشر الدين الإسلامي في إفريقيا وأوروبا قد عبر تقريبا كل أراضي الجزائر الحالية وكان من المقرر أن يتحرك بعد شمال إفريقيا باتجاه إسبانيا بالقرب من معسكر، وجد الجيش نفسه مضطرا لخوض معركة بلا رحمة ضد السكان الأصليين، كانت الخسائر كبيرة على كلا الجانبين وكان من بين جيش المسلمين محارب، رجل مقدس اسمه بن حنيفة، حيث رأى رفاقه يسقطون بأعداد كبيرة من حوله، وكان هناك جرحى وقتلى في كل مكان في ساحة المعركة.

ارتفع أنين لجندي من بين الجثث، كان لا يزال على قيد الحياة وكان بن حنيفة نفسه مريضا بشكل خطير، رفع يديه إلى السماء وخاطب الخالق وقال:- "اللهم.. يا رحيم.. يا أرحم الراحمين.. ارحم من يستشهد في سبيلك.. استمع إلى معاناة هؤلاء الرجال الذين يحاربون من أجل إعلاء كلمتك.. ولم يترددوا في مواجهة عدو أكبر عددا وبلد يصعب عليهم الوصول إليه.."- كان بن حنيفة واقفا على ركبتيه وراحته مفتوحتين وتوجهان نحو السماء وبصره يلتهب وجسده ممدود، متوجها لله بدعاء صادق، حينها وقع حدث غير متوقع، إنها المعجزة..، حيث لبي الله دعاء هذا الرجل التقي، حيث ضرب حصانه بحوافره الأرض عدة مرات، ورأى بدهشة ينابيع حارة تتفجر وتندفق من تحته، انحنى بن حنيفة مرتين، وجهته على الأرض وسجد سجدة شكر ثم خاطب أصحابه وطلب منهم وضع هذا الماء الساخن على جروحهم وقد فعلوا ذلك، كان التأثير فوريا.. نهض الرجال وشفوا جميعا، كل هذا بفضل بركة الولي الصالح بن حنيفة .

بعد وفاة الولي الصالح بن حنيفة سنة 1349م، أمر القائد العسكري لجيش المسلمين الذي شعر بحزن عميق لوفاة هذا المحارب الشجاع وهذا الرجل الاستثنائي بدفنه في نفس المكان الذي حدثت فيه المعجزة، بعد ذلك تم بناء قرية حول هذا القبر وأطلق عليها اسم سيدي بن حنيفة. حافظت المياه الدافئة لما يعرف الآن باسم حمام بوحنيفية على سمعتها العلاجية، يأتي الناس من جميع أنحاء العالم للاستفادة من هذه المصادر المقدسة والشفاء

والراحة، وبعد سلسلة من الاستحمام في موجات الشفاء هذه يغادرون مثل القائد العسكري في حالة جيدة" (المفروض زين العابدين، 2020).

الشكل 2: صورة ضريح الولي الصالح سيدي بن حنيفية Le Marabout سنة 1931.



Source : Bou Hanifia les Thermes Mascara Algerien, Le Marabout, (<https://www.akpool.fr/cartes-postales/27378254-carte-postale-bou-hanifia-les-thermes-mascara-algerien-le-marabout>).

كما ارتبطت تسميات أهم المنابع الحموية الموجودة بمدينة بوحنيفية والتي تتدفق على طول ضفاف واد الحمام التي يقصدها الطالبون للعلاج سواء كان علاجاً عضوياً (أمراض الجلد، العظم، الكلى، الجهاز التنفسي، الجهاز التناسلي، الجهاز الهضمي، أمراض العيون... إلخ)، أو روحياً وما يسمى بـ: "البركة والنية" حسب زعمهم (زواج، تيسير الأمور وقضاء الحوائج، علاج السحر، الحظ...) ببعض الصالحاء الذين عاشوا في المنطقة قديماً، فنجد أن لكل منبع مائي ضريح لولي صالح، ولكل أسطوره وقصته التي تروى جيلاً بعد جيل وهي:

-عين سيدي عبد الله المألحة: وتمتاز بخاصيتها في علاج أمراض العيون، حيث يغمس المريض رأسه في الحوض الصغير المملئ بمياهها ويفتح عينيه مدة من الوقت.

-عين لالة شافية: وتمتاز بخاصيتها في علاج أمراض حصى الكلى.

-عين سيدي موسى: وتمتاز بخاصيتها في علاج أمراض المعدة.

-عين الحمامات لسيدي عبد القادر: وتمتاز بخاصيتها في علاج أمراض الجلد كونها منبع

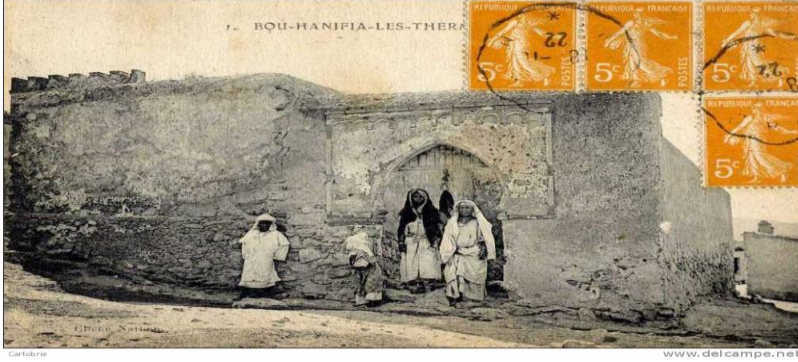
حموي كبريتي، يتم حك الجلد المصاب بنبتة "الدقلة" المتواجدة على ضفاف الواد، ثم يطلى بالمادة الطينية الكبريتية التي ترسب على صخور المنبع، وتترك لمدة ساعة من الوقت ثم

يتم الإغتسال بمائها.

2.4 فضاء ذودلالة هندسية رمزية:

"تم استخدام برك بوحنيفية القديمة لفترة طويلة من قبل العرب والأتراك. كانت منطقة معسكر مقر إقامة البايات الغربيين حتى إخلاء وهران من قبل الإسبان عام 1792، ثم أخذ محمد الكبير لقب باي وهران وجعل من مدينة معسكر عاصمته منذ تلك اللحظة، أصبحت معسكر مهجورة إلى درجة النسيان وأخذ ازدهارها يزول بسرعة ومع ذلك احتفظت بحامية تركية صغيرة من مائة رجل، أحدث سقوط الجزائر العاصمة عام 1830 حالة من الانفعال العام بين القبائل. رفضوا مساعدة بيك وهران حسن الذي ضغط من قبل الفرنسيين، استسلم وسلم المدينة لهم في 4 يناير 1831" (Jean-Claude Rosso, SD, p02).

الشكل 3: صورة حمام البركة التركي سنة 1910.



Source : Algerie, Bouhanifia, (<https://www.delcampe.net/fr/collections/cartes-postales/algerie/autres-villes/algerie-bou-hanifia-animee-193095156.html>).

"يصرح الباحث الأركيولوجي شوقي ميراوي أن بوحنيفية اشتهرت منذ بدايات القرن العشرين بمنابعها المعدنية، وشهدت إبان الاحتلال الفرنسي إنشاء عديد الفنادق بين سنتي 1905 و 1916، قبل أن يتم بناء محطة معدنية خاصة بالمرضى سنة 1939، وقبل أن يتم أيضا إنشاء عدة حمامات أخرى أخذت طابعا عمرانيا مكعبا خلافا للنسق الموريسكي الذي تنفرد به المحطة المعدنية **Station thermale** الرئيسية" (كامل الشيرازي، 2009).

الشكل 5.4: المحطة المعدنية لحمامات بوحنيفية.



Source1 : Hammam Bouhanifia, (http://www.egtt-dz.com/hammam_bouhanifia1.html).

Source2 : Hammam Bouhanifia, Patio Mauresque, (<https://www.delcampe.net/fr/collections/cartes-postales/algerie/autres-villes/algerie-bou-hanifia-les-thermes-le-patio-de-letablissement-thermal-1040182339.html>).

حيث ومن خلال الصورتين يتبين لنا اهتمام المعمارين الفرنسيين بالفن الموريسكي الأندلسي الإسلامي من الداخل والخارج، واتخذت من المحطة المعدنية للحمامات طابع المسجد بقبة وصومعة، وكل هذا يدل على تطور فن العمارة والحضارية لمدينة بوحنيقية عبر الأزمنة.

الشكل 7.6: الإستطباب بالمياه الحموية.



Source1 : Curistes prenant un bain de pieds dans les thermes de Bou Hanifia, circa 1990, Algérie. (Photo by Christian SAPPA/Gamma-Rapho via Getty Images), (<https://www.gettyimages.fr/detail/photo-d'actualit%C3%A9/curistes-prenant-un-bain-de-pieds-dans-les-thermes-photo-d'actualit%C3%A9/1266969860?adppopup=true>).

Source2 : Etablissement Thermal, (<https://www.ebay.fr/itm/CP-PHOTO-ALGERIE-ORAN-BOU-HANIFIA-ETABLISSEMENT-THERMAL-/190450547426>

3.4 منابع مائية وأمثال شعبية:

يعتبر الماء من أهم الرمزيات الضاربة في عمق تاريخ الحضارات والشعوب على مر العصور، حيث أصبح كتراث مادي ولا مادي يعبر عن كينونة وهوية كل منطقة وما تحويه من وأنهار ومنايع جارية، تعكس وتصلق ثقافة الإنسان، لهذا بات الحديث عن ثقافة الماء في المجتمع الجزائري عامة والمجتمع البوحنيفي بصفة أخص، حديثا لا يخلو من متعة ومن صعوبة في الآن ذاته، كونه أصبح يشكل أبعادا أنثروبولوجية واجتماعية يومية منذ فجر التاريخ وعنصرا للوحدة وللنزاع، والمعروف أن منطقة بوحنيفية تتوفر على العديد من المنايع المائية الحموية التي تشكل لدى ساكنتها رصيذا ثقافيا وموروثا شعبيا، وصاغ من خلال هذه المادة المقدسة أمثالا شعبية توارثها وتداولها عبر الأجيال، ومن هذا المنطلق أردنا التطرق لهذه الظاهرة الاجتماعية الأنثروبولوجية من خلال سرد بعض الأمثال الشعبية المتداولة للماء بمنطقة بوحنيفية، وإعطاء قراءة رمزية لها وتحليل مضمونها، والكشف عن طبيعة مثل هذه الأمثال الشعبية.

1.3.4 الحياة التعاملية من خلال الأمثال الشعبية للماء:

"فوت على الواد الفرفار وما تفوتش على الواد السامت"، " ما تشرب حتى تقرب، وما تصحب حتى تجرب"، من خلال هذين المثليين يتضح لنا طبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع نتيجة الصمت المطبق لشخص ما من خلال التعاملات الاجتماعية وكذا ضرورة اختبار الصديق في المواقف الحياتية والذي قد يكن في قلبه المكر والخداع، مما قد تؤدي في نهاية المطاف إلى حدوث قطيعة بين الشخصين، ولهذا يستحضر هذا المثل في أدبيات المجتمع البوحنيفي قصد تقديم النصح والرشد التي بإمكانها أن تكون لها نتيجة إيجابية في تحديد الصديق الوفي.

2.3.4 صورة الدين من خلال الأمثال الشعبية للماء:

"الماء بلا شرا والقبلة بلا كرا"، "صلي يا عاطل ..الماء والقبلة باطل" من خلال هذا المثل الذي يحث على التمسك بأحد أركان الإسلام ألا وهي الصلاة، وذلك من خلال ضرب المثل بضرورة الوضوء كون الماء متوفر ومجاني، والقبلة ليست مقابل مبلغ مالي، بمعنى أن المثل يحث ويدعو أفراد المجتمع إلى أداء فريضة الصلاة.

3.3.4 الحياة الفلاحية من خلال الأمثال الشعبية للماء:

"الماء لي رايح للسدرة الزيتونة أولى بيه"، يأخذ هذا المثل مواصفات الطبيعة التي يعيش فيها الإنسان حيث يوحي هذا المثل إلى عدم التبذير، كون أن الماء يعد نعمة من نعم الله حسب الموروث الثقافي، ولا ينبغي تركه يجري نحو السدرة -وهي نبات يعيش في المناطق التي تشهد شحا في وفرة الماء-، والأجدر أن يذهب إلى شجرة الزيتون التي لها فائدة بالدرجة الأولى على الإنسان مقارنة بالسدرة.

5. خاتمة:

في الختام فإن هذه الدراسة ورغم سعيها إلى الوقوف على بعض الإشكاليات التي تتعلق بالحمام المعدني الذي يتخذ من الماء الحموي المتدفق من باطن الأرض مصدرا لنشأته، ويجعل منه فضاء حضريا يهتم به الإنسان ويبدع في جمالية عمرانته عبر العصور ما يعكس هوية مجتمع وانتمائه الحضاري، فهو يعتبر محاولة لقراءة وتفسير بعض الظواهر

الأنثروبولوجية والإجتماعية لمرتادي هذا الفضاء الحضري داخل المدينة، من خلال الرموز والطقوس والأساطير والإستطباب وقضاء الحوائج والتي تراكمت في الذاكرة الشعبية عبر الأجيال وأصبحت تمثل له تراثا مقدسا وجب الحفاظ عليه من الزوال.

إن الاغتسال أو الاستحمام هو طقس أنثروبولوجي متعدد الأبعاد، يجمع بين الديني والإجتماعي والثقافي والتراث الشعبي وحتى السياحي، ما جعله رابطا بين الماضي والحاضر في شكل إبداعي جميل، ويساهم في خلق وتشكيل نسيج حضري في المدن متعددة البنيات والوظائف، شأنه شأن الكائنات الحية -الإيكولوجيا-، له حياة ونمو وتطور، كي يواصل الإستمرارية والربط بين الأجيال الحضرية، وتكون له القوة في مواجهة المشكلات الحضرية التي تعترضه، إلا أنه وفي السنوات الأخيرة أصبحنا نرى تشييد فضاءات حضرية داخل المدينة الحموية، فقيرة جدا من حيث جمالها المعماري متسما بالتكعيب ولا نلمس من خلاله أي ذوق فني يعكس حضارة "الآن" لنقدمه لأجيالنا اللاحقة كإرث، كون أن العمارة تربط كل ما هو مادي بالإنساني، ولهذا نعتقد أنه أن الأوان لأن تكون هناك جهودات جدية للتنسيق في المجال البحثي وتوثيق الروابط العلمية بين كليات الهندسة المعمارية وكليات العلوم الإنسانية والإجتماعية في كل ما يخص العمارة في الوسط الحضري وخاصة حقل الأنثروبولوجيا الحضرية.

6. قائمة المراجع:

1.6 المؤلفات:

- ابن منظور محمد بن الأكرم الإفريقي، (2010)، لسان العرب، ج:04، ط01، بيروت، دار صادر.
- أحمد النكلاوي، (2002)، النظرية في تخطيط المدن في: دراسات مصرية في علم الإجتماع والأنثروبولوجيا، القاهرة، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية.
- خولة الفرشيثي، (2017)، الجسد في الحمام، ط01، تونس، نقوش عربية.
- السيد عبد العاطي السيد، (2006)، علم الإجتماع الحضري، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
- عبد الرحمن ابن خلدون، (2005)، مقدمة ابن خلدون، القاهرة، دار ابن الهيثم.
- عبد الرحمن المالكي، (2016)، مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة، المغرب، إفريقيا الشرق.

- عبد الرؤوف الصبغ، (2003)، علم الاجتماع الحضري، قضايا واشكاليات، دار الوفاء
للدنيا الطباعة والنشر.

- عزيز لونيس، (2018)، المياه المعدنية الحارة لبوحنيفية، الجزائر، مركز الدراسات والبحوث السياحية.
- محمد بن حسين بيرم التونسي، (1908)، الحمامات المعدنية، ط01، مصر، مطبعة
السعادة.

- محمد بومخلوف، (2001)، التحضر، الجزائر، شركة دار الأمة.

2.6 المؤلفات باللغة الأجنبية:

- Henri Lefebvre, (1970), La révolution urbaine, France, Gallimard.
- Mascret Claude, (1953), Des Cures Thermales à Bou-Hanifia, Alger, SME.
- Sahla. N,-E, (2018), Mascara La Capitale de L'Histoire et Coeur de L'Afrique,
Tlemcen, La Nouvelle Publication Universitaire.
- Vincent.M, (1926), Aquæ Sirenses, Oran, SME.

3.6 مواقع الأنترنت:

- كامل الشيرازي، بوحنيفية الجزائرية مهد الأمير وأرض المنابع، الموقع:
<https://elaph.com/Web/Reports/2009/10/491553.html>، اطلع عليه يوم 29 جوان 2020،
الساعة: 10.00.

- Jean-Claude Rosso, Bouhanifia, SD, 04 juillet 2020, site :

https://jeanyvesthorrignac.fr/wa_files/info_401_20Bou_20Hanifia.pdf.

4.6 المقابلات:

- المفروض زين العابدين، (2020)، مقابلة مع مقدم ضريح الولي الصالح سيدي
بن حنيفية.